

المباني الأثرية و التراثية - الأخطار التي تهددها و بعض طرق معالجتها

أ.لعمى عبد الرحيم

جامعة يحي فارس المدينة

المقدمة :

يعتبر التراث الحضاري المعماري على اختلاف أشكاله و أنواعه مبعث فخر الأمم و اعتزازها ودليل على عراقتها و أصالتها ، أي أنه معبر عن الهوية الوطنية و صلة وصل بين الماضي و الحاضر و من المؤسف أن يكون ذلك التراث عرضة للضياع والهدم و بالتالي الاندثار و الإهمال على خلاف ذلك فإن الاهتمام العالمي بالتراث و حمايته قاد إلى إقامة مؤسسات دولية ثم وطنية تتولى الاهتمام به و حمايته خاصة بعد الحربين العالميتين الأولى و الثانية و لا جرم أن نذكر ما قامت به منظمة الأمم المتحدة والمنظمات المتفرعة عنها مثل منظمة اليونسكو على إحداث هيئات تساعد على حماية المباني التاريخية والمواقع الأثرية كالمجلس¹ الدولي للمباني و المواقع الأثرية (ICOMOS) و المركز الدولي لحماية الممتلكات الثقافية و ترميمها (ICCROM) و مهما يكن فإن اهتمام الدول بالمباني الأثرية و التراثية يختلف من دولة إلى أخرى وفق جملة من المعطيات تتخلص في القدرات المالية و الثقافية و الفنية و أيضا نظرتها إلى التراث و هنا أفتح قوسا لأذكر أن هناك من يرى ضرورة صيانة ذلك التراث مؤداه تعبير عن احترام الماضي و الحرص على مواصلة الحوار معه لما في ذلك من ربط الحاضر بالماضي والتطلع إلى المستقبل و هناك من ينظر إلى التراث نظرة سلبية يرى فيه دلالة على تخلف الماضي و ضرورة التخلص منه و قد سببت تلك النظرة السلبية تدمير كثير من المعالم التاريخية فقد هدمت بعض المباني الأثرية و التراثية لاستخدام حجارتها في مباني أخرى مع التحفظ في ذكر المباني و الدول ويمكن القول أن الصراع بين مؤيدي التراث المعماري و الفني ومعارضيه قد خلف كثيرا من الضحايا و أقصد هنا ضياع المعالم التاريخية و التراثية خلاصة القول أن المادة الأثرية و المباني التاريخية تحمل قيمة فنية وجمالية و تاريخية و ربما قد تخلو تلك المباني الأثرية من الزخارف و النقوش و الكتابات لكنها تحمل القيمة العلمية و الحضارية و من هناك يتبادر إلى أذهانها إشكالية المداخلة ما المراد بالمباني التراثية و الأثرية ، ما القيم التي تحملها ، و ما هي طبيعة الأخطار التي تلحق بها وأخيرا كيف يمكن درء هذه الأخطار و معالجتها . و من أجل ذلك و لأجله فقد قسمت مداخلتي إلى ثلاثة

¹ شوقي شعث ، مجلة سادروان ، العدد الأول ، 2010 ، ص 03

مباحث أحدث في المبحث الأول عن مفهوم و تعريف المبنى التراثي و الأثري ثم القيم التي يحملها هذا المبنى ثم طريقة التصنيف المعمول بها في المباني التراثية و الأثرية في المبحث الثاني أحدث عن الأخطار التي تهدد المعالم الأثرية ما ارتبط بالطبيعة ثم بالإنسان و في المبحث الثالث عن كيفية درء الأخطار وطرق معالجتها و أخيراً بعض الملاحظات في الخاتمة للارتقاء بالمباني التراثية والأثرية.

المبحث الأول : تعريف المبنى التراثي الأثري

يجرنا الحديث في تعريف المبنى التراثي و الأثري إلى كلمة التراث في علاقته بالمادة الأثرية² فالمادة لا تصبح تراثاً ما لم تكن اكتست قيمة نوعية نعتها بالتراث وهي بالأساس علاقة بين الإنسان والمادة أي تلك القيمة التي يمنحها المجتمع ذاته . ربطاً بأن القيمة بالمفهوم العام هي قيم أخلاقية ، اجتماعية و دينية و هي بالإجمال تعبير عن الوجود الإنساني في الوقت الذي تكون فيه حكماً يصدره الإنسان .

تعريف المبنى التراثي : هو منشأة تتميز بقيمة تاريخية أو رمزية أو معمارية أو فنية أو عمرانية أو اجتماعية و قد اتفق على المباني و المنشآت التراثية ينبغي أن تتسم بالآتي³ :

- قبول المجتمع أي أن تحظى بقبول و تفاعل إيجابي من المجتمع بما يتيح لها الاستمرارية .
- ظاهرة ثقافية و اجتماعية أي أن تعبر عن ظواهر مادية أو معنوية أو فكرة في حقبة زمنية معينة .
- الصمود و الاستمرارية أي أن حالتها تسمح باستمرارية تواجدها وإمكانية التعامل معها .

2- تصنيف المباني الأثرية :

أ - **القيمة التاريخية :** و تتمثل في أن المبنى يرتبط بأحداث مؤثرة تعطيه أهمية كجزء من ذاكرة المدينة أو البلد و تعتبر هذه المباني كسجل لمجتمع و القيمة العامة لهذه الأبنية تزداد بزيادة قدم المبنى و مدى تعبير المبنى عن عصره و أصالته مواد المبنى و ما طرأ عليها من تغيرات ولا تتأثر هذه القيمة بحالة الأثر ويمكن قياس القيمة التاريخية لمباني باستخدام مؤشرين أساسيين هما :

المؤشر الزمني : يعبر عن تاريخ إنشاء الأثر أو المبنى فكلما كان تاريخ الأثر كبيراً كلما زاد هذا المؤشر و كلما أصبح المبنى أو الأثر ذا قيمة أكبر .

المؤشر المعنوي : و الذي يتأثر بعدة اعتبارات أهمها :

² المرجع نفسه ، ص 06 .

³ المرجع نفسه ، ص 11 .

- مدى تعبير المبنى عن عصره و تاريخه.
 - أهمية الفترة التاريخية التي ينتمي إليها المبنى
 - مقياس الندرة لنوعية البناء فكلما كان نادرًا ازدادت قيمته.
 - قوة وتأثير الحدث المرتبط بالمبنى أو المنشأة وأهميته التاريخية.
 - عدم وجود إضافات أو تغييرات مخلة بالكيان المعماري لمبنى.
- ب - القيمة العمرانية :** و تمثل القيمة العمرانية المبنى الأثري كونه أحد المباني التي تؤلف فيما بينها نسيجًا عمرانيًا تاريخيًا مميزًا بتناسق كتلة وارتفاعاته و ألوانه و ما حوله و هذا ما يضمه النسيج من مرات و فراغات ذات طابع تاريخي⁴ خاص و قد لا يضم المبنى أي من القيم إلا أنه يمثل قيمة عمرانية بقائه ضمن النسيج التاريخي لتناسق ارتفاعاته و كتله مع ما حوله . المهم أن المبنى يكتسب أهميته من تواجده في منطقة عمرانية مثلاً و ذات طابع خاص تشكل ذاكرة المدينة إذ لا يمكن فصل المبنى عن محيطه العمراني و ليس بالضرورة أن يكون منفرداً و إنما تعود أهميته لاعتبارات علاقته المتكاملة مع موقعه العمراني و مع المباني المحيطة به .
- ج - القيمة المعمارية الفنية :** و تشمل القيمة الجمالية لمبنى الأثري بكونه عملاً فنياً جمالياً و هي تمثل الجانب الانفعالي لمبنى الأثري كالأبنية التي تقام لغرض جمالي بحث مثل النصب التذكارية و تعتبر القيمة الفنية و الجمالية للأبنية من المحددات الرئيسية لقيمة المبنى كأحد الأبنية الجديرة بالحفاظ عليها أما القيمة الوظيفية فهي ما تتميز به الأبنية المعمارية عن الفنون الأخرى فجميع الآثار المبنية شيدت لأغراض وظائف خاصة و تعتبر حالات مثالية إذا كانت تستخدم حتى اليوم في نفس الوظيفة الأصلية كالمسجد و الكنيسة .
- د - قيمة معنوية اجتماعية :** لكي يمثل المبنى قيمة اجتماعية لأبد أن يرتبط على مر الزمن بوظائف اجتماعية مهمة بالمنطقة وأن يمثل انعكاساً لفكر أو عقيدة أو تقاليد اجتماعية بوجه عام .
- هـ - قيمة تقليدية محلية :** لا بد أن يكون المبنى أو المنشأة :
- جزء من عمارة حضرية أو ريفية أو صحراوية لها طبيعة متكاملة تتميز بتاريخها و عمارتها المتجانسة .
 - ضمن مجموعة معمارية بها استخدم لمواد بناء ميزة تعبر عن طبيعة المكان وتواءم مع الظروف المناخية.
 - بناء تقليدي يعبر عن خبرات متراكمة عبر الأجيال من التصميم والإنشاء والحرف التقليدية.

⁴ عطية أحمد إبراهيم ، حماية و صيانة التراث الأثري ، دار الفجر ، 2003.

و- **القيمة الرمزية** : كأن يرتبط مبنى بشخصية كان لها تأثيرها الواضح في مسيرة المجتمع من حيث المولد و النشأة أو الإقامة المستمرة و أن يتميز المبنى بكونه نتاج تصميم معماري لأحد رواد العمارة و تبعاً لتلك القيم المذكورة فإن المباني التراثية تصنف إلى ثلاث فئات رئيسية مرتبطة بالقيم التراثية كما تصنف حالتها إلى عدة مستويات : جيدة -متدهورة جزئياً - متدهورة كلياً و الهدف من هذا التصنيف هو وضع أولويات التعامل مع المباني التراثية ، فالمباني الأهم توضع على رأس أولويات خطط الحفاظ ويمكن تحديد مستويات التدخل المختلفة لمباني التراثية بناء على ما يقره خبراء التراث المعماري والترميم وهي كالآتي⁵ .

- **مباني تراثية فئة أ** : ترمم مع عدم إجراء تعديلات داخلية و خارجية إلا في أضيق الحدود .
- **مباني تراثية فئة ب** : يسمح فيه بقدر من المرونة في عمل بعض التعديلات الداخلية.
- **مباني تراثية فئة ج** : حيث يتاح بقدر كبير من المرونة يصل إلى الهدم مع الاحتفاظ بالهيكل أو الواجهة الخارجية لمبنى فقط مع إعادة تأهيل أو إعادة بناء المبنى من الداخل كلياً.

المبحث الثاني : الأخطار التي تهدد المباني التراثية و الأثرية

هناك عدد كبير من الأخطار التي تسبب ضرراً للمباني التاريخية و الأثرية و قد تسبب في خرابها والتوقف عن استخدام تلك المباني و تآكلها التدريجي و يمكن إجمال تلك الأخطار في الأمور الآتية :

أ- الأضرار التي تسببها الطبيعة : و منها

1- **الزلازل و الصواعق** : تسبب أضراراً بالغة للمباني التاريخية و الأثرية مثل الخلخلة و التشقق و أحيانا الانهيار وغيرها من الأخطار و تتناسب هذه العملية مع شدة الزلزال و مدتها ، أما في حالة الصواعق فأمكن عن طريق تركيب مانعات الصواعق درءاً لأخطارها و في هذه الحالة لا بد من دراسة المبنى ودراسة توزيع و تركيب مانعات الصواعق و إجراء فحص دوري لها رغبة في إبفائها جاهزة الفعالية و خلاصة يمكن القول أن الزلازل و الصواعق تتسبب في تدمير كثير من المواقع و المباني التاريخية و تركها مع الزمن أثراً بعد عين.

2- **الأمطار و السيول** : و من المخاطر الطبيعية التي تتعرض لها المواقع الأثرية هطول الأمطار بغزارة و لمدة أطول و أحيانا ما يسبب انجراف التربة التي تقوم فوقها المخلفات الحضرية . أو زيادة نسبة

⁵ الدليل الإرشادي (أسس و معايير التنسيق الحضاري للمباني و المناطق التراثية) ، الطبعة الأولى ، 2010 ، ص13 .

الرطوبة فيها إضافة إلى ارتفاع منسوب المياه خاصة في المدن الساحلية أو الواقعة في الجزر أو تلك التي تقع على شواطئ الأنهار الكبيرة ، و أما السيول فتسبب انجراف التربة و تخلصها .

3- العوامل الجوية : و تظهر هذه العوامل في التقلبات الجوية كارتفاع درجة الحرارة و انخفاضها و انخفاض و شدة الرياح التي تسبب الحت ⁶ الذي يلحق أضرارا كثيرة بالمعالم التاريخية و الأثرية و بالمخلفات الفنية .

ب- الأضرار الناتجة عن سلوك الإنسان : تحدث أمور عديدة للمباني التاريخية و الأثرية يكون مصدرها الإنسان مثل الحرائق و الحروب و أعمال الهدم و التخريب و قد يتسبب الإنسان عن قصد في إشعال النيران في المساكن الخاصة و العامة و يتطور ذلك فتسبب حرق السقوف الخشبية مثلا و قد تحمل زخارف نادرة و تسبب أيضا إلحاق الضرر بالحجارة التي تضعف مقاومتها بعد الحريق و عن أعمال الهدم و التخريب فإن ضعف المراقبة يشجع أحيانا كثيرا من المؤسسات أو حتى الأفراد على القيام بأعمال تؤدي إلى الهدم للمباني الأثرية و التاريخية رغبة في تجديدها أو إزالتها لإقامة بناء جديد مكانها نتيجة الجهل بالقيمة التاريخية للبناء أو عن عمد في بعض الأحيان و أخيرا ⁷ قد يلجأ بعض متصيدي التحف إلى هدم المباني التاريخية و أخذ عناصرها الزخرفية و التاريخية أو أحد الأعمدة أو التيجان أو مخلفات أخرى طمعا في الكسب غير المشروع قصد بيعها لهواة التحف و هناك خطر لا يقل أهمية ناتج عن حركة النمو العمراني و الديمغرافي المرتبط بتنظيم المدن و القرى و إقامة المشاريع الكبرى كالسدود و السكك الحديدية و شق الطرق و مدّ الأنابيب و إنشاء المطارات و الموانئ البحرية .

المبحث الثالث : درء الأخطاء التي تسببها الطبيعة و الإنسان و بعض طرق معالجتها

لدرء تلك الأخطار لابد من القيام بأعمال من شأنها أن توفر وسائل و أعمال إنقاذية للمباني التاريخية المهددة بالأخطار التي يسببها الإنسان و الطبيعة و من أبرز تلك الأعمال مواجهة الأضرار التي تحدثها الطبيعة كالزلازل و من الطبيعي أن لا يكون في مقدور الإنسان عمل شيء لتلافي الأضرار الزلزالية حيث تحدث تلك الزلازل فجأة و دون سابق إنذار و هذه الزلازل تسبب الخراب للمدن و القرى و المنشآت الكبرى و هنا يمكن القول أن جهد الإنسان محدود إزاء الزلازل إلا فيما يتعلق بإخلاء بعض المناطق و إنقاذ الناس من بعض الأخطار و هناك حدث آخر من أحداث الطبيعة و هو الصواعق ، فقد عرف الإنسان إقامة مانعات الصواعق التي تخفف إلى حدّ كبير أضرارها المختلفة في المباني الأثرية و القلاع التاريخية و هناك خطر ثالث من أخطار الطبيعة و هو السيول والأمطار و هذه الأخطار يصعب

⁶ محمد مجدي تراب ، أشكال الصحاري المصورة ، دراسة لأهم الظواهرات الجيوميرفولوجية بالمناطق الجافة و شبه الجافة ، مطبعة الانتصار ، 1996 ، ص 255 .

⁷ المرجع نفسه ، ص 139 .

تجنبها أحيانا و عليه لابد من اتخاذ تدابير وقائية لمواجهةها و التخفيف من أضرارها و من تلك الوسائل عما قنوات و خنادق حول بعض المدن و القرى لدرء السيول ليسهل تصريف مياه الأمطار بعيدا عن تلك المدن و القرى و منها كذلك زيادة مقاومة البناء و إصلاح نقاط الضعف تقذفها المياه داخل البناء عبر الشقوق الموجودة بالجدران و السقوف و الأساسات و هناك عدة طرق لعلاج مثل تلك الحالات عندما تكون الأبنية طينية أو حجرية أو قرميدية ... إلخ ، و في حالة سقوف الجدران يمكن معالجتها بسدّ الثغرات و المنافذ و رأب الصدوع باستعمال سائل إسمنتي (الروبة) يناسب تلك الحالات ، أما في حالة السقوف المغطاة بالقرميد المرصوف أو بالإسمنت أو الطين و لوقاية تلك السقوف من الأضرار التي تسببها الأمطار لابد من استكمال نواقص التغطية السقفية و إتقان تلاحم مكونات السقف كأن يلجأ إلى تغيير السقف أو إصلاح الشقوق فيه و في حالة وجود سطح ترابي فمن المستحسن استبداله بسطح إسمنتي و أما الأساسات العائدة للمباني فهناك عدة طرق لوقايتها من التأثير بالرطوبة و تسرب المياه فهذه المشكلة تسبب متاعباً و أضراراً للمباني الأثرية بسبب المياه و الرطوبة العالية من مياه الأنهار و الأمطار المتجمعة في الأحواض خاصة في فصل الشتاء و هناك مشكلة هامة و مؤثرة على المباني الأثرية و التراثية خاصة في البلدان العربية و هي نمو النباتات على جدران هذه الأخيرة خاصة في المناطق التي ترتفع فيها نسبة هطول الأمطار و الرطوبة و قد يجد البعض في قطع تلك النباتات خلاصاً إلا أنه في بعض الأحيان تأتي النتائج عكسية حين تعود الأشجار على النمو بقوة أكبر ، و قد جُربت عدة طرق منها قاذفات اللهب و المواد الكيماوية التي تحقق بها الأشجار و لكنها لم تتجح ولازالت الأبحاث جارية للتخلص من النباتات و يُذكر أن شركة أويوة تدعى (سيباو جي جي) (Sipawd gigi) ⁸ قد نجحت في التوصل إلى إيجاد مركب كيميائي عرضته على مركز (ICCROM) المركز الدولي لحماية الممتلكات الثقافية و ترميمها فقدم نتائج جيدة .

و من تلك الأخطار أيضا انزلاق الأرض أو التأثير بالحت ، أو المناخ كارتفاع درجة الحرارة و شدة البرودة و هذه الأخطار و إن كان تأثيرها بطيء و لكنها شديدة الخطر .

و مهما يكن فإن الإنسان رغم خبرته الطويلة لم يتوصل إلى حلول ناجعة رغم ذلك فهناك حلول أقل كلفة و أقل فعالية كان يعتمد إلى نقل الزخارف و الأجزاء الحاملة لها إلى المتاحف أو أماكن تتوفر فيها الحماية و قد يلجأ إلى تغطيتها بمواد خفيفة لإبعاد التأثيرات المناخية و قد يلجأ أيضا إقامة الحواجز المصنوعة من السيليكات الزجاجية لحجب التأثيرات الخارجية (حرارة ، رطوبة) عن زخارف و نقوش بعض السطوح وتعرف هذه الطريقة بالترجيح ⁹ مع الملاحظة أن لهذه الطريقة مخاطرها ذلك لأنها تحول

⁸ عبد الوهاب محمد فهمي ، دراسة نظرية و علمية في حقل الفنون الأثرية وطرق مواد الترميم الحديثة ، 1985 .

⁹ عبد الوهاب محمد ، دراسات علمية في ترميم و صيانة الآثار ، القاهرة ، 1997 .

دون تنفس الجزء المعزول و تركه يتفاعل داخليا و قد يؤدي إلى تلف الجزء المحبوب و تشقق الغطاء الزجاجي .

- و فيما يتعلق بمواجهة الأخطار التي تتسبب فيها يد الإنسان كالحرائق و الهدم والتخريب المقصود و التمدد العمراني فبالنسبة للحرائق فمن الضروري إبعاد الحرائق في المباني الأثرية و ذلك بتجنب استخدام النار فيها و عدم اتخاذها مستودعاً للمواد القابلة للاشتعال و إما استبعاد الأخطار التي تتولد عن هدم الانسان و تخريبه المقصود من جراء قيام مالكي المباني بهدمها أو تغيير معالمها أو إضافة شيء حديث بدافع المصلحة الشخصية أو بسبب الجهل بأهمية الممتلكات الثقافية يترتب عن هذا توعية المواطن و تحسيسه بأهمية التراث الحضاري و في نفس الآن تكثيف المراقبة استبعاداً لكل تخريب و اعتداء على التراث .

و من المستحسن أيضا التوصل إلى اتفاق مع الجهات الحكومية التي تتولى تنفيذ المشروعات الإنمائية لمعالجة الأخطار المهددة للتراث المعماري جرّاء تنفيذ مشاريعها سيما أمام ضغط التنمية و ما يتطلب من توسع عمراني و من المؤسف أن ذلك التطور أدى إلى زوال كثير من الأبنية الأثرية و لعلاج هذه المشكلة يرى الخبراء اتباع الخطوات التالية :

- دراسة منطقة المشروع بدقة للتعرف على ما يتضمنه من آثار و ممتلكات ثقافية و تقييمها من قبل خبراء في العمارة و العمران و الآثار و الفنون .
- الاتصال بالمشرفين على المشروع للعمل معاً لحفظ المواقع و المباني التاريخية وعدم تعرضها للخطر سيما عند وضع الدراسات التنفيذية النهائية .
- عند تعذر تعديل الدراسات المتعلقة بالمشروع فإنه من الضروري البدء بوضع دراسة و خطة لانقاذها بالسرعة الممكنة .

الخاتمة :

المدن التاريخية ، المباني التراثية و الأثرية المرآة التي نرى أنفسنا فيها إذا حافظنا عليها دون الإخلال بالتوازن الديمغرافي و الاقتصادي نكون قد أخرجنا موت هذه المباني لسنوات فنكون قد أخرجنا موت هذه المباني لسنوات طويلة و فعلا نجحنا في الحفاظ عليها أولاً و ثانياً فسحنا المجال لأنفسنا و لأبنائنا القدرة على التمتع بالتراث الحضاري و العمراني و المعماري و للارتقاء بتلك المباني و حفظها يمكن اقتراح ما يلي :

- وضع خطط لتفعيل البنى التحتية لإحياء المدن التراثية و الأثرية .

- عدم ترك المباني الأثرية للإهمال و الهجر و عبث العابثين فمن الضروري تفعيل وظيفتها و إعطاؤها الدور الذي تستحقه .
- إجراء مسح أثري و تراثي للمنطقة المراد حمايتها و التعرف على الأهمية المباني الأثرية و التراثية و التاريخية و الفنية و عمل مخططات أولية لها و توثيقها .
- إعداد قوائم بالمباني الأثرية و التراثية المراد حمايتها و بذلك تكون تحت مظلة الحماية القانونية بعد إصدار قرارات من السلطة .
- المراقبة المكثفة فالتشريعات و الدراسات المذكورة آنفا غير كافية فكم من بناء مسجل هدمه أصحابه و أقاموا مكانه بناءً حديثاً توخيا من الكسب المادي . أو أجروا إصلاحا يسيء إلى عراقتة و قيمته التاريخية و لمعمارية و الفنية .
- التوعية و تتخلص بتعريف المواطن بأهمية الآثار الثقافية و الاقتصادية له و لغيره و انتهاز الفرصة و إثارة اهتمامه بالتراث و إشعاره بالسؤولية .
- إشراك المواطنين في تحمل مسؤولية حماية التراث الوطني الأثري و التراثي لتحسيسهم بذلك و جب إدخالهم و إشراكهم في اللجان الحكومية المختصة مع إحداث مؤسسات تساعد على توعية المواطنين و شاغلي الأبنية و شرح أبعاد قضية التراث و فائدتها للمواطنين و للهوية و مطالبة السلطات الفاعلة بتخصيص الأموال لحماية تلك المباني و ترشيد استخدام تلك الأغلفة المالية مع إصدار التشريعات المنظمة لذلك .